

## في النقد النسوي إشكاليات وملامح

إعداد د. رزان محمود إبراهيم

تدعو النظرية الأدبية النسوية -في العالم الغربي- الأدب النسائي إلى أن يكون ذا هوية أنثوية خاصة، تعبر عن تجربة المرأة الخاصة وتعكس واقع حياتها بشكل تفصيلي، ذلك أن المرأة قد قدمت ولفترات طويلة بأنماط بعيدة عن الحقيقة والواقع بواسطة نماذج أدبية مضللة، لذلك لا بد وأن يتطابق الأدب النسائي وتجربة المرأة سعياً وراء فهم ملح للتجربة الأنثوية، وهو الفهم الذي سيساهم بالضرورة في زيادة وعي المرأة.<sup>(1)</sup>

هذا في وقت نرى الناقد العربي وقد جعل هذا النوع من الكتابة تهمة توجه للكتابة النسائية، وحكم عليها بأنها كتابة فاشلة تتضمن قضايا محددة تبعاً لتجربة محدودة، فالمرأة في نظره تكتب لتراث الثقافة النسائية بدلاً من أن تكتب للتراث العظيم.<sup>(2)</sup>

والمرأة الناقدة كثيراً ما تجابه هذا الموقف وتدافع عن الأدب الذي تكتبه المرأة بالقول إنه يعمل أبعاداً سياسية واجتماعية واسعة خلافاً للتهمة الموجهة إليه.<sup>(3)</sup>

ولكن ولو سلمنا بضرورة أن يعكس أدب ما قضايا واسعة اجتماعياً وسياسياً، واعتبرنا أن محدودية التجربة ستؤدي إلى محدودية ما يُكتب، فإن هذا البحث يرى خطورة التعميم بهذا الشأن وإطلاق أحكام قيمية منقطعة عن سياقها الزمني التاريخي. فلو أردنا الحديث عن الإبداع النسوي العربي في بدايات القرن العشرين، فإننا قد نقول إنه عكس إلى حد كبير التجربة الأنثوية الضيقة، لكننا لا نستطيع إطلاق الحكم نفسه على الإبداع النسوي في فترات زمنية متأخرة.

ولا يقتصر هروب الكاتبة المرأة من هذا الخط الأنثوي على هذا الأمر، وإنما يبدو جلياً في رفض عدد لا بأس به من الكاتبات العربيات التمييز بين الكتابة النسائية والذكورية، فقد رأين أو افترضن أن إطار المساواة صار يجمع بين الرجال والنساء في كل شيء، لذلك لا داعي إلى تمييز نتاج المرأة في أي مجال، إضافة إلى رغبة دفينة في نفوسهن في الحفاظ على الأدب النسائي ضمن حركة الإنتاج الثقافي العامة، كي يستفيد هذا الأدب من قوة الدفع التي توفرها هذه الحركة. ولعل بعضاً من كاتباتنا قد فضلن الإبقاء على السكون بعيداً عن جدل قد

---

(<sup>1</sup>) Eaglton, Mary Feminist literary theory, Blackwel, Cambridge, UK, p 151.

(2) انظر تفاصيل ذلك في :

بثنية شعبان، 100 عام من الرواية النسائية، دار الآداب، بيروت، 1999، ص 23.  
وانظر شهرزاد الجديدة، قبرص، حزيران، 1990، العدد 52، ص 54.

(<sup>3</sup>) المرجع نفسه، ص 24.

يؤدي إلى الحديث عن خصائص النتاج الذهني للمرأة، أو أن بعضاً منهن حاول التقرب من خط الكتابة الذكورية خشية من فقدان حماية الرجل إن هن تميزن تحت تسمية ذات صلة بجنسهن<sup>(1)</sup>.

ومن هذا المنطلق أيضاً تتهم بعض الباحثات العربيات بأنهن خلقن مواقف أبدية متكررة حين حرصن على إعادة آراء الرجال بالأعمال النسائية، فكان النقد المسيطر هو نقد ذكوري\*. وفي المقابل نفع على مواقف نقدية نسائية تعدت التيار النقدي الأساسي وادعت بأنه لا ينصف الكتابة النسائية، فجاءت بعض الأحكام من مثل:

وصول إبراهيم السعافين إلى نتيجة من خلال رواية واحدة وتعميم هذه النتيجة على الرواية النسائية، فيقول إنها تتميز بصراحة جنسية يتم التعبير عنها بالصراخ والهستريا. أو اتهام جورج طرابيشي بأنه حين درس أعمال نوال السعدوي في كتابه (أنثى ضد الأوثنة)، فإنه بالغ في انتقادها لأنها لم تكتب الكتاب الذي أرادها أن تكتبه.

كما يُنقد عفيف فراج حين رأى أن المرأة تتحرك في كتاباتها في عالم الرجل، إذ تتمرد ضد الرجل كي تعود إليه، كما يلام حين ينتقد الكاتبة المرأة التي ترغب بتحقيق الحرية الجنسية لبطلاتها دون أخذ اعتبار للواقع الاجتماعي<sup>(2)</sup>.

ومهما يكن ردنا على مثل هذه الأحكام، فإنه من الضروري الاحتراز من ردود فعل عنيفة تجاه كل ما يكتبه الذكور، فإن كان توليد المعنى في النقد الذكوري التقليدي مرتبطاً بالتعارضات الثنائية التي هي أساس بنية التفكير الأبوي عند هيلين سيكسوس\*، فإن بعضاً من الكاتبات في العالم العربي انغمسن في نزعة مماثلة بإدانة النقاد الذكور، وإصاق تهمة التمييز الجنسي بكتبهم واستحسان أعمال جميع النساء.

وكأنما شرط الأنا حتى تتحقق هويتها الجنسية انتهاك الآخر وتشويهه، ومن ثم حرمانه من حقوقه، فكانت الصورة الاستعارية ببنيتها التراتبية الرجل / المرأة، بدلاً من التجاور. وهي الصورة التي حفرت نفسها في بنية التفكير الأبوي، بحيث تنهض حركة توليد المعنى في كل

---

(1) وانظر في ذلك نازك الأعرجي، صوت الأنثى، دار الأهالي، دمشق، ص 5-36.

\* على سبيل المثال تتهم بثينة شعبان إيمان القاضي أنها أحجمت عن تقديم مراجع حول دراسات نقدية كتبتها نساء ناقدات في العالم العربي.

(2) عفيف فراج، الحرية في أدب المرأة، دار ابن هاني، دمشق، 1986.

وانظر تعليق بثينة شعبان في كتابها الأنف الذكر، ص 33.

\* هيلين سيكسوس: عرفت في مجال النقد النسائي من خلال تحليلها لبيئة التفكير الأبوي (Patriarchal Binary

مزدوجة من مزدوجات هذه الثنائية على نفي كل طرف من طرفيها للآخر. فيتحول كل مزدوج إلى ساحة معركة يدور فيها الصراع من أجل تحقيق التفوق الدلالي باستمرار<sup>(1)</sup>. ومن هنا ننقل عن طرابيشي قوله " الرجل يكتب بعقله ويعيد بناء العالم، أما المرأة فتكتب بقلبيها وتركز على المشاعر، وعليه فإن العالم هو المركز كما يمكن أن نسميه رواية الرجل، بينما الذات هي مركز الرواية النسائية."<sup>(2)</sup>

كما نذكر في هذا المجال مسعى نوال السعدوي إلى جعل الرجال والنساء مرتبطين بعلاقة أكثر عدوانية من أية علاقة يمكن أن تقوم بين إنسان وإنسان، ففي حين أن الرجال جميعاً مجرمون، فلا يمكن لأية امرأة أن تكون مجرمة، فالإجرام يحتاج إلى ذكورة<sup>(3)</sup>.

والحقيقة أن مثل هذه التقاسيم يظهر نزاعاً صامداً في استعمال بعض الكلمات، وفي خضم هذا النزاع الذي يساق إليه المتلقي في مجال الفصل بين العاطفة والعقل - كما ورد عند جورج طرابيشي - أو الفصل بين الفكر والشعور على نحو ما نميز في وصف الأشياء المادية بين الشكل والحجم، فكأننا هنا نفترض إمكانية أن يكون للشيء شكل دون حجم أو حجم دون شكل. وكذلك الأمر في الحديث عن التمييز بين العقل والعاطفة، فنحن إن نظرنا إلى الممارسة العملية وجدنا التفكير مصحوباً بباعث معين، فلا يستطيع التفكير أن يمضي بمفرده. ومع ذلك نجد مثل هذه الافتراضات الخاطئة التي تأخذ هذا الانفصال مأخذاً سهلاً. فمن منا يستطيع أن يقسم اللغة فسمين: قسماً يحفل بما نقول، وقسماً يحفل بشعورنا نحوه؟

وحقيقة الأمر أن الاعتماد المتبادل بين الكلمات يخدم التكامل، فالكلمات يعتمد بعضها على بعض، ولا بد من الاحتراز من إعطاء مثل هذه التقسيمات، فكثير من النزاع المرير على ساحتنا الثقافية النقدية مرده رؤية تستبعد الآخر أو تعرفه بالسلب\*.

ونحن في هذا المجال قد نتقبل فكرة فوكو\* التي ترى أن ما هو صواب في رأي المجتمع يعتمد على من يهيمن على الخطاب، وكأن سيادة لغة الرجل تقوم بدور أساسي في قمع المرأة، والعكس صحيح، وهو ما يوحيه عنوان كتاب Dale - Spender (لغة من صنع

(1) صبري حافظ، أفق الخطاب النقدي، دار الشقيقات، القاهرة، ص 31.

(2) دراسات عربية، المجلد 12، العدد 2 بيروت، كانون الأول، 1975، ص 47- 71.

(3) انظر ذلك في امرأة عند نقطة الصفر، دار الآداب، بيروت، ص 117.

\* وانظر ذلك في :

مصطفى ناصف، اللغة والتفسير والتواصل، سلسلة عالم المعرفة، يناير، كانون الثاني، 1995، ص

58- 59.

\* فوكو، مفكر فرنسي معروف، نظر إلى الخطاب بوصفه نشاطاً إنسانياً مركزياً، وهو من الذين اهتموا بالبعد التاريخي من التغيير الخطابي، فما يمكن قوله يتغير من حقبة إلى أخرى.

الرجال) بما تراه المؤلفة من أن المحاولات التي تقوم بها الكاتبة المرأة للسيطرة على الخطاب ما هي إلا ردة فعل تواجه بها المرأة نمطاً إيديولوجياً بطريركياً حريصاً على إنتاج قوالب مكررة عن رجال أقوىاء ونساء ضعيفات<sup>(1)</sup>.

وهنا يأتي النقد النسوي- حسبما تقدمه جوليا كريستيفا- ليفكك النظام الترميزي ويعيد صياغته على أسس جديدة يتم فيها تعريف الآخر، والتعامل معه باعتباره عنصراً مماثلاً، وهنا أيضاً تكمن أهمية كريستيفا في أنها تحدث الكثير من المقولات القديمة الثابتة حول الإنسان بكل ما تتطوي عليه من انتهاك لحقوق الآخر<sup>(2)</sup>.

ونطرح ونحن في مجال الحديث عن النقد النسوي السؤال التالي:

هل النقد الذي تمارسه المرأة هو بالضرورة نقد نسائي؟ وبالتالي فإن النقد الذي يمارسه

الرجل هو نقد ذكوري؟

تؤكد لنا ماري إيجلتون في كتابها (النظرية الأدبية النسوية) خطأ هذا التصنيف، وترى أن العمل الأدبي النسائي هو ذلك العمل غير المقيد بالمفاهيم التقليدية والذي لا يلقي بالاً لمعايير الرجل وهو بالضرورة يعكس واقع حياة المرأة بشكل صادق بقصد زيادة وعي المرأة، وإيجاد رابطة قوية تخلق نوعاً من الأخوة في المجتمع النسائي، وبالضرورة أيضاً لا بد أن تحمل هذه الأعمال ولاءً لحركة تحرير المرأة، بحيث يشكل الصراع أو الصدام مع الوسط أو المحيط في كثير من الأحيان عنصراً أساسياً في الإبداع النسوي، بل إن النقد النسائي وحسب إيجلتون، يفخر بتلك الرواية التي تعكس تجربة اضطهاد المرأة. فالعمل الأدبي النسائي يسعى إلى مقاومة الدمار بدعم وثقة نساء تبشر تصرفاتهن بنظام اجتماعي جديد، وهو يفرض على الكاتبة التحرك ضمن سياسة معينة لنيل القبول، من مثل ضرورة توظيف أدب المرأة لتحقيق ذاتها غير المعتمدة على الرجل<sup>(3)</sup>.

لذلك قد تتفق صاحبات النقد النسائي على ضرورة الربط ما بين النقد النسائي والحركة النسائية، فقد نجحت الحركة النسائية في تطوير الوحدة بين الفعل السياسي والفعل الثقافي، فكل نظرية نقدية هي نظرية سياسية، بمعنى أنها تسعى دائماً إلى التحكم في الخطاب<sup>(4)</sup>.

---

(1) رمان سلون، النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة جابر عصفور، ط1، دار الفكر، القاهرة، ص 218-222.

(2) وانظر تفاصيل ذلك في:

صبري حافظ، أفق الخطاب النقدي، ص 15- 36.

(3) Eaglton, Mary, Feminist literary theory, 164- 167.

(4) هبة شريف، هل للنص النسائي خصوصية، هاجر، كتاب المرأة، العدد الأول، 1993، ص 134، 135.

وإذا كنا نقر بأن الكتابة عملية لا يمكن تأديتها ببراعة من خلال الرجوع إلى أهداف مقررّة مسبقاً، وإذا كنا نعتقد بأن الكتابة حصيلة مؤثرات يتعذر تفسيرها، فكثيراً ما نسمع أن الكاتب لا يعلم من أين جاءت كتابته؟ أو متى سيبدأ الكتابة؟ وإلى أين ستقوده هذه الكتابة؟ إذا كنا نقر بذلك، فلنا أن نتساءل حول إمكانية قولبة أي شكل من أشكال الإبداع في نظرية معدة مسبقاً؟ أو إلى أي حد يستطيع المبدع أن يخضع لإملاءات نظرية ما؟

ولكن يبقى السؤال الأكثر إلحاحاً، هل تكتب المرأة بطريقة تختلف عن الرجل؟ الاختلاف في شكل ومضمون ما تقدمه المرأة في نتاجها الأدبي قضية محورية في النقد النسوي. وهناك من يرى أن الأدب الذي تقدمه المرأة بالضرورة يختلف عما يقدمه الرجل، وتدور أغلب المناقشات عن هذا الاختلاف حول محاور خاصة تتعلق بالجانب البيولوجي، وهو الجانب الذي يستخدمه الرجل أساساً لإبقاء المرأة في مكانها، وفي المقابل فإن بعض ممثلات الحركة النسائية يرتكزن إلى هذه الصفات البيولوجية بوصفها مصادر لتفوق المرأة. إضافة إلى الجانب البيولوجي، نجد ناقدات الخصائص النسوية gynocritics وقد لجأن إلى التجربة الخاصة للمرأة، فما دامت النساء وحدهن يعانين تجارب الحياة الأنثوية النوعية، فهن وحدهن اللاتي يستطعن الحديث عن حياة المرأة، إضافة إلى ما تتضمنه تجربة المرأة من حياة انفعالية وفكرية خاصة، فالمرأة لا تنتظر إلى الأشياء كما ينظر إليها الرجل، كما أن أفكارها ومشاعرها إزاء ما هو مهم وغير مهم تختلف عن الرجل<sup>(1)</sup>.

ويقتضي المحوران السابقان إدراك الفارق المهم بين الجنس sex والهوية الجنسية gender، وهو ما فعلته Kate Millett\* حيث استعارت من العلوم الاجتماعية التمييز ز المهم بين المصطلحين، فالجنس يتحدد بيولوجياً، أما الهوية الجنسية فهي مفهوم ثقافي مكتسب، ولذلك فهي تهاجم علماء الاجتماع الذين يتناولون الصفات الأنثوية المكتسبة ثقافياً كالسلبية بوصفها صفات بيولوجية طبيعية، وترى أن المرأة أحياناً تساهم في الإبقاء على مثل هذه الترجمات<sup>(2)</sup>.

وفي النقد النسوي، نجد من يعتقد بوجود طريقة خاصة للمرأة في انتقاء الصور والمجازات، فالين مور مثلاً تربط ما بين الاستعارات التي تستعين بها الأدبية والوضع الاجتماعي الذي تنتمي إليه "أية أساليب حياتية خاصة بمجتمع النساء"، فنجد مثلاً صورة

(1) رمان سلون، النظرية الأدبية المعاصرة، ص 216.

\* Kate Millett: كاتبة أمريكية راديكالية، أحدث كتابها Sexfual politics أثراً كبيراً في عالم النقد النسائي، وقد كانت من مؤسسات المنظمة النسائية المعروفة باسم (Now).

(2) نفسه، ص 218.

الطائر المتكررة في كتابة المرأة، أو صورة العصفور في القفص التي ترد كثيراً في روايات  
Jane Eyre.

وقد ينسب للمرأة في هذا المجال ميل غريزي فطري لصور معينة أو أشكال لغوية  
محددة، وبالتالي قد يحيل الرجوع المتكرر إلى صورة العصفور في القفص في كتابة المرأة  
إلى أمر بيولوجي<sup>(1)</sup>.

ولكن تبقى البنية الثقافية للمرأة هي العامل الأقوى في تشكيل بعض الصور  
والمجازات، ولذلك وجدنا العديد من البطلات الإناث في الروايات التي ألفتها نساء عربيات  
يقمن علاقة وثيقة مع ما هو خارج الجو الاجتماعي القمعي الذي نعيش فيه.

ففي رواية مرافقة لماجدة العطار، مثلاً، تقيم الشخصية الرئيسية لمياء العلاقة الهادئة  
الوحيدة في حياتها مع شجرة الياسمين، إلى درجة أن شجرة الياسمين تصبح الكائن الوحيد  
الذي يصغي إلى وجهات نظر لمياء. كذلك ترغب لمياء في أن تكون نخلة حرة تحركها الريح  
وتهزها العاصفة...\*

وفي رواية الجامعة أيضاً لأمنية السعيد، تلجأ البطلة إلى الطبيعة بعيداً عن المجتمع  
البشري.

"وتمنت لو كانت عصفوراً لتعيش في الفضاء الواسع مرة مستقلة: ترتفع أو تنخفض،  
لتطير أو تهبط، مسيرة بمحض إرادتها واختيارها، لا وازع لها في تصرفاتها إلا رغبات  
فطرية ساذجة، غير خاضعة لتقاليد أو قيود"<sup>(\*)</sup>.

أما هيلين سيكسوس Helen Cixous، فتفرض تعبير الكتابة الأنثوية بمعنى (وجود  
لغة للرجل وأخرى للأنثى تحتها طبيعة الجنس). وترى أن تأييد الخضوع إلى لغة أنثوية ذات  
علامة بارزة يعطي فرصة ملائمة لظلم المرأة واضطهادها<sup>(2)</sup>.

كذلك ترفض جوليا كريستيفا Julia Kristeva، مفهوم الهوية نفسه، بما في ذلك  
القول بهوية نسوية وأخرى رجالية، باعتبار أن هذا المفهوم ينتمي إلى مرحلة التصورات  
الثابتة التي سبقت التفكيكية، فهي ترفض أية نظرية تعتمد على مفاهيم الهوية المطلقة بغض  
النظر عن أساس هذه النظرية (بيولوجي أو اجتماعي أو نفسي). فآليات التوليد اللغوية حين

---

(1) Eaglton, Mary Feminist literary theory, p200- 201.

\* انظر الرواية، دار الروائع، بيروت، 1960، ص 83.

\* انظر الرواية، دار المعارف، مصر، سلسلة اقرأ، العدد 92، تموز، 1950، ص 6.

وانظر أيضاً في هذا الموضوع بثينة شعبان، مائة عام من الكتابة النسائية، ص 95.

(2) Eaglton, Mary Feminist literary theory, p195.

تظهر هذه الفروق، فإنها تفعل ذلك بسبب الجدل بين هذه الآليات وحركة القوى الحريضة على وضع المرأة في المجتمع الأبوي في كان هامشي<sup>(1)</sup>.

وترى إيجلتون أن النظرية النسوية قد تحركت نحو وجهة جديدة من حيث أنها انتقلت من رفض لغة مميزة للمرأة، فالاتجاه الأنثوي في الكتابة ليس خطاباً مرتبطاً بالمرأة بشكل لازم. وهنا نلاحظ ما ذكرناه سابقاً من إمكانية إلحاق الرجل أحياناً في الكتابة الأنثوية، مما يضيع أهمية الحديث عن تجربة المرأة وانعكاس هذه التجربة على كتابتها، علماً بأن صاحبات هذا الرأي يعتقدن بأن احتمالات الكتابة الأنثوية تأتي في الدرجة الأولى من قبل المرأة، ذلك أن الكتابة الأنثوية تهدف إلى هدم سيطرة المواقف الذكورية التي استمرت لفترات تاريخية طويلة، بفعل عوامل تراثية متعددة<sup>(2)</sup>.

وفي جميع الأحوال تعترف هذه الدراسة بوجود تقارب أسلوب في الكتابة النسوية، ولكن الأمر يحتاج إلى استقصاءات أسلوبية متعددة.

فيما سبق، تحدثنا عن رغبة حثيثة لدى بعض الناقدات في التخلص من الخضوع للنظريات التي وضعها الرجل، ومن هنا أبدت شتوالتر Showalter قلقاً من هذا الخضوع انطلاقاً من رغبة معلنة في عدم تبني نظرية على الإطلاق. فالنظريات في المؤسسات الأكاديمية مذكرة دائماً، فالفضائل الذكورية تجد ملاذها في مجال النظرية، وغالباً ما توجه هؤلاء الناقدات نقداً قاسياً إلى نظريات فرويد لما فيها من نزعة تمييز جنسي sexism صارمة. بالإضافة إلى أنهم يرغبون في الفرار من ثبوتية وقطعية النظرية لتطوير خطاب أنثوي لا يمكن تقييده فكرياً بنسبته إلى تراث نظري معترف به.

هذا في وقت تطرح فيه أخريات إمكانية استغلال هذه النظريات لصالح النظرية الأدبية النسوية، فالكاتبة الماركسية Moi مثلاً تعتقد بأنه لا يوجد خيار فيما يتعلق بموضوع التنظير، فهي خلافاً لشتوالتر ترى أن مجموعة النظريات التي يشرف عليها الرجل مثل السيميائية والماركسية والبنوية ونظريات التحليل النفسي مفيدة للحركة الأدبية النسوية. وهناك أيضاً من تدعي إمكانية الإفادة من بعض هذه النظريات وطرح البعض الآخر جانباً. وحقيقة الأمر أن الانطلاقات الحديثة والتطورات التي سايرت الأشكال الجديدة للخطاب تتسجم انسجاماً كبيراً مع قضية المرأة<sup>(3)</sup>.

(1) صبري حافظ، أفق الخطاب النقدي، ص 35 - 36.

(2) Eaglton, Mary Feminist literary theory, p200- 201

(3) IBID. p 200-201.

فبخلاف ما هو شائع من أن النظرية النقدية الجديدة ركزت على النص على حساب ما هو إنساني، فإن هذه النظرية تنطوي على مجموعة من التصورات المتعلقة بالقيم الإنسانية، أو بتصورات فلسفية تتعلق بالإنسان، على الرغم من انشغالها الظاهر بالعناصر النصية وتشكلاتها. فعلى حين تبنت بعض النظريات النقدية القديمة تحيزاً ضد شرائح عريضة من المجتمع الإنساني، وخاصة المرأة والطبقات المضطهدة والأقليات المختلفة، فإننا نستطيع أن نقول إن النظرية النقدية الحديثة قد أسهمت في تغيير هذه التصورات الثابتة بما ينطوي عليها من إغفال لبعض الحقوق الأساسية للإنسان التي كانت تدرج عادةً في منطقة المسكوت عنه أو المضمّر، وأظهرت هذه النظريات بأن هذا التغييب لم يكن بريئاً، بل يحمل دلالات واضحة، فالغياب معادلٌ للحضور في تأسيس المعنى والدلالة تتولد من خلال الصمت والمسكوت عنه، ولاشك أن جزءاً كبيراً من عملية التقييم مستمد من البحث عن الغائب لأن هذا الغياب مرتبط بالضرورة بفلسفة محددة.

وعلى العموم نستطيع أن نصف الممارسة النقدية التقليدية، بأنها انطلقت من فهم فلسفي حول الإنسان (وهنا أخص المرأة بالذكر)، أي أنها انطلقت من قناعة معينة لما هو حق للمرأة، ولما هو تجاوز لهذا الحق\*.

ومن هنا جاءت مقولات دريدا لتساهم مساهمة فاعلة في النقد النسوي الحديث، الذي كشف عن تغلغل التصور الأبوي ببنيته السلطوية في المنظور النقدي، مما أدى إلى نفي الآخر المماثل (المرأة)، وتتضح هذه المساهمة من خلال مفهوم (الجدل المستمر بين الإرجاء والاختلاف في اللغة)، فدريدا يرى أن أي بحث عن معنى أساسي ومطلق ونهائي وثابت هو نوع من العبث، وبالتالي فإن التفاعل الحر بين الإشارات اللغوية لا يسفر أبداً عن معنى نهائي أو دلالة نهائية ذات معنى بنفسها، فهناك تفاعل لغوي حر ومستمر ولا نهائي بين الإرجاء والاختلاف، الأمر الذي ترك آثاره الواضحة في إعادة اختبار المسلمات القديمة، كما كشفت عما تنطوي عليه مجموعة المفاهيم الأساسية الثابتة، وقدم أداة رئيسية تضع المسكوت عنه على قدم المساواة مع المفصح عنه بعد أن يفصح عن الكيفية التي يتم بها تحويل آليات الحضور والغياب من خلال اللغة إلى أدوات تكريس للرؤى السائدة وإلى أشكال مراوغة للقمع والتهميش، وبالتالي لا بد من القيام بعملية تحليل جذرية للبنى الرمزية، وإعادة رؤية سلبياتها من الداخل عبر تحليل ماهر للنصوص فيما عرف في النقد الحديث بالتفكيكية\*.

\* وانظر تفاصيل هذه القضية في أفق الخطاب النقدي، ص 15-16.

\* انظر ذلك في أفق الخطاب النقدي من 29-30.

وفي النظرية الأدبية المعاصرة، ص 146-154.

إذا كنا قد استندنا في حديثنا عن النقد النسوي إلى مجموعة الأطروحات التي قدمتها النظرية الأدبية في الغرب، فإن ذلك يعود إلى أن التنظير النقدي النابع من خصوصيات الثقافة العربية غائب، لكن يبقى عزاًؤنا أن النظريات إجمالاً هي جهد إنساني، حتى وإن كنا نتطلع إلى إمكانية إيجاد نظرية نقدية نسوية نابعة من خصوصيات الثقافة العربية.

ومهما يكن الأمر، فإننا لا نستطيع الحديث عن النسوية في العالم العربي بمعزل عن الملابسات التاريخية الخاصة التي واكبت عملية تشكل هذا المصطلح، وما نتج عن هذه الملابسات من خطابات وتوجهات نقدية متنوعة.

بداية، إذا كنا نعتزف لمصر بدور الريادة في قضايا المرأة، فإننا نستعير من مارغو بدران البدايات الأولى التي استخدم فيها مصطلح النسوية Feminism في مصر، فقد كان ذلك في عام 1909 عندما نشرت ملك حفني ناصف مجموعة من المقالات عدها كثيرون علامة فارقة في تاريخ المرأة.

وقد نشرت هذه الخطابات تحت عنوان نسائيات، ومضمون هذه النسائيات يكشف عن مطالبة بتحسين وضع المرأة بالتعليم وفتح فرص العلم ورفع أشكال الاضطهاد عن المرأة، وقد نشرت هذه النسائيات على صفحات الجريدة التابعة لحزب الأمة الوطني، الأمر الذي ساعد في انتشار الصوت الأنثوي ليصل قطاعات عريضة من الجنسين<sup>(1)</sup>.

والحقيقة أن مصطلح النسوية بادئ الأمر لم يكن مرتبطاً بحركة لها أهدافها واتجاهاتها، فقد استخدم هذا المصطلح بشكله الرسمي عام 1923، وكان ذلك عن طريق الحزب النسائي المصري، إلا أننا نستطيع القول إن المرأة العربية أنتجت خطاباً يمكن تعريفه بأنه نسوي قبل أن يتشكل لديها مصطلح واضح للنسوية، وكما وجدنا في الغرب من لا يربط هذا المصطلح بما تنتجه المرأة فقط، فإن هناك اعتقاداً في العالم العربي بأن النقاش النسائي بدأه في العالم العربي المحامي المصري قاسم أمين في كتابه " تحرير المرأة" \*.

ومنذ عام 1923 إلى الوقت الحاضر شهدت مصر نشاطاً نسوياً تنظيمياً سيطرت عليه مجموعة من الاتجاهات الفكرية التي تركت أثرها الواضح في الخطاب النسائي عبر فتراته المختلفة، فقط ظهر الخطاب الإسلامي الباحث عن ذات المرأة من خلال عملية تجديد وإصلاح ديني شاملة، وفي المقابل ظهر خطاب آخر أخذ على عاتقه أن تطور المرأة وإعلاء شأنها يكون بالتوجه نحو المجتمعات الغربية الأوروبية.

---

(1) Badran, Margot, Cook, Miriam, Opening the gates, Indiana University press, p 14-15.

\* IBID, 14-17.

ومن خلال دراسة ليلي أحمد لإنجازات هدى شعراوي الرائدة في مجال الحركة النسائية، نستطيع القول إن نظرة هدى شعراوي كانت موجهة نحو الغرب باعتباره أكثر تقدماً وتحضراً من الشرق، حتى وإن كانت صاحبة نشاط وطني قومي، فقد رفضت السيطرة البريطانية من منطلق رفض الطبقة المتقفة الليبرالية لها<sup>(1)</sup>.

والحقيقة أن هدى شعراوي وزميلاتها برزن في مرحلة شهدت تتاغماً للنخبة البرجوازية مع النظرة البطريركية، حتى إن الكتابة النسوية في هذه الفترة، تعطينا نسخة واضحة عن الأنثى السلبية سهلة الانقياد التي تشكل في مجملها تنوعات للخطاب البطريركي يعرف الدور الاجتماعي للمرأة حسب علاقته بالقواعد أو المبادئ السلوكية الشائعة التي تكون ذكورية بشكل واضح، والمرأة هنا تتكلم بلغة الرجل وثقافته وتفكر بتفكير الرجل، وهو تفكير احتل اللغة واستعمر الثقافة حتى صارت اللغة رجلاً. والكتابة النسوية هنا تضع المرأة في قالب مثالي من خلال ما يراه الرجل وتعيد إنتاج أشكال تقليدية للمرأة.

وحين أدرك الخطاب النسائي أهميته في الحياة الاجتماعية والسياسية للأمة، حاول هذا الخطاب أن يحدث تغييراً جذرياً يعتمد على تغيير نظرة المرأة لذاتها، وقد برزت هذه المرحلة مع تصعيد اجتماعي توافق مع انتشار التعليم وظهور الطبقة الوسطى واشتراكها الواسع في القضية السياسية، وهي المرحلة التي خف فيها نجم الطبقة الأرستقراطية القوية للمبدعات اللواتي اخترقن مجال الكتابة من منطلق ترفيهي. ومن سمات هذه المرحلة (1930-1970) أن الأنظمة الوطنية قامت بدعم برامج التغيير الاجتماعي التي أطلقتها المرأة، وجاء الإبداع النسوي لي طرح مشروع إلغاء التحكم البطريركي في توزيع الأدوار، وهو ما رأته المؤسسات الحاكمة موجهاً ضد النظام القديم، مما مكن الخطاب النسائي من تعزيز وضع المرأة في عالم الأدب، ويؤكد ذلك عدد الكاتبات في هذه الفترة اللواتي التمسن شرعية اجتماعية تضمن لهن مكاناً في النظام السائد حتى ولو كان هذا النظام مليئاً بالعيوب.

وبقي الأمر كذلك إلى أن تم تطوير خطاب إبداعي مميز تنتمي صاحباته للطبقة العاملة البسيطة، وهن الأدبيات اللواتي طرحن خطاباً يهدف إلى هدم النظام السائد وتغيير الوقائع المحلية داخل هذا النظام الذي يخدم النظام البطريركي ويتجنب أي تغيير قد يؤثر في مساره\*.

---

(1) Ahmed, Leila, Women and gender in Islam, Yale university press, London, P165- 176.

\* وانظر تفاصيل هذا الموضوع في مقالة صيري حافظ.

Gender, Language and Identity, Soas, University of London.

فيما سبق تحدثنا عن خطاب نسائي توجه إلى الغرب مقابل خطاب نسائي آخر بحث عن ذات المرأة من خلال عملية تجديد وإصلاح ديني شاملة، وبالتالي كانت ملك حفني ناصف الصوت المناوئ الذي حاول أن يؤكد ذاتية المرأة من خلال التراث والثقافة المحلية، كذلك ظهرت زينب الغزالي عام 1917 مبتدئة حياتها السياسية مع هدى شعراوي، ولكنها انفصلت عنها بسبب اختلافهما في التوجهات، وأسست جمعية السيدات المسلمات، وقد كان للغزالي موقف سياسي ترى فيه ضرورة أن يحكم القرآن مصر لا الدستور والقوانين الوضعية. وتمثل زينب الغزالي صورة شديدة الوضوح لحرية المرأة في العمل الإسلامي السياسي في وجه من يتشدد في منع نشاط المرأة<sup>(1)</sup>.

كذلك - وبعد الحرب العالمية الثانية- بدأت الجماعات اليسارية بالتشكل في مصر، فظهرت إنجي أفلاطون ولطيفة الزيات وثرثريا أدهم وغيرهن اللواتي أبدين اهتماماً حميماً بشؤون المرأة وارتباط قضيتها ارتباطاً جذرياً بقضية المجتمع.

وقفنا فيما سبق على تصنيف للخطاب النسائي العربي ضمن رؤية نقدية رصدت مجموعة من التوجهات الفكرية العامة التي تتابعت في الوطن العربي، وكان لها الأثر الواضح في توجيه الإبداع النسائي، كما كنا قد أحلنا إلى دراسة توجهت إلى الكاتبة المرأة وصنفتها حسب معطيات اجتماعية طبقية.

ويبقى أننا ونحن في مجال الحديث عن النسوية في عالم الإبداع العربي، لم نتمكن من رصد نظرية نقدية عربية، وكل ما فعلناه في هذا المجال أننا انطلقنا من رؤية شاملة نعتقد أن النقد الأدبي واعياً أو غير واعٍ هو نقد مرتبط بفلسفة. فقد كانت هناك توجهات إيدولوجية عديدة تظهر تداخلاً حتمياً بين الأدب والإيدولوجيا. وبالتالي رأى هذا البحث أن لا مانع من التعامل مع مجموعة الأعمال الأدبية النسائية عبر تاريخنا المعاصر على أنها وحدة شاملة تصدر عن أفق الكاتبة وفلسفتها الخاصة بالعالم. مع التسليم بأن العمل الأدبي حسبما يقول صلاح فضل يكشف عن إيدولوجية صاحبه وإيدولوجية عصره من خلال الكلام واللغة<sup>(2)</sup>.

---

(1) انظر تفاصيل ذلك

ومحمد الجوادي، مذكرات المرأة المصرية، ط1، دار الشروق، القاهرة، ص 71-86.

(2) الاتحاد الثقافي، 21 مايو، 1998، ص7.